

صورة الطفل والطفولة في الشعر العربي الكلاسيكي –العصر العباسي نموذجاً-

The Theme of Children and Childhood in Classical Arabic Poetry/ -Ab-basi Dönemi Özelinde- Arap Şiirinde Çocuk ve Çocukluk Motifi

Ehssan DALAL

Öğr. Gör. Dr., Bilecik Şeyh Edebali Üniversitesi, İslami İlimler Fakültesi, Arap Dili ve Belagati Anabilim Dalı, Bilecik/Turkey.

ehssan.dalal@bilecik.edu.tr

ORCID ID: <https://orcid.org/0000-0002-0250-9850>

Adnan ARSLAN

Doç. Dr., Bilecik Şeyh Edebali Üniversitesi, İslami İlimler Fakültesi, Arap Dili ve Belagati Anabilim Dalı, Bilecik/Turkey

adnan.arslan@bilecik.edu.tr

ORCID ID: <https://orcid.org/0000-0002-3989-6612>

Makale Bilgisi | Article Information

Makale Türü / Article Type: Araştırma Makalesi / Research Article

Geliş Tarihi / Date Received: 09 Mart / March 2021

Kabul Tarihi / Date Accepted: 25 Mayıs / May 2021

Yayın Tarihi / Date Published: 30 Mayıs / May 2021

Yayın Sezonu / Pub Date Season: Mayıs / May

Atıf / Citation: Dalal, Ehssan – Arslan, Adnan. صورة الطفل والطفولة في الشعر العربي –العصر العباسي نموذجاً- edid: *edebali islamiyat dergisi/ edebali islamic journal* 5/1 (Mayıs/May 2021): 113-136

İntihal: Bu makale, iThenticate yazılımınca taranmıştır. İntihal tespit edilmemiştir.

Plagiarism: This article has been scanned by iThenticate. No plagiarism detected.

Web: <http://dergipark.gov.tr/edid> | mailto: iifdergi@bilecik.edu.tr

Copyright © Published by Bilecik Şeyh Edebali Üniversitesi, İslami İlimler Fakültesi / Bilecik Seyh Edebali University, Faculty of Islamic Sciences, Bilecik, 11230 Turkey.

Bütün hakları saklıdır. / All rights reserved.



صورة الطفل والطفولة في الشعر العربي الكلاسيكي -العصر العباسي نموذجاً-

ملخص البحث

إن الأطفال رأسمال الأمم الأكثر أهمية في بناء مجتمع قائم على المكارم والرقى. أهمية الأطفال ليس مقصوراً على كونهم مقومين لحياة اجتماعية صحيحة البنية في المستقبل بل يتمثل دورهم في إبداء نموذج من طبيعة بشرية خالية من شوائب الرياء والتكلف والتصنع. لربما من أجل هذا نعبّر عن عواطف بريئة بلفظة -مثل الطفل-. إن من وظائف الأدب الأساسية عكس العواطف البشرية كما هي. ولهذا يمكن القول إن هذه الوظيفة جعلت طريقها يتقاطع مع الطفل والطفولة بما فيهما معاني الصفاء والبراءة. فبناء على هذا نجد صورة الأطفال في الأدب العربي على الصعيد القديم والحديث منه. حاولنا في هذا البحث إلقاء الضوء على كيفية تعامل بعض من الشعراء العرب مع صورة الطفل والطفولة في أشعارهم. ووجدنا من الشعراء من يستخدم صورة الطفل كمرآة تعكس صورة الحياة الدنيوية بتقلبات أحوالها وسرعة تأثرها بما حل بها وما شابه ذلك. وقسم آخر منهم يعتبر الطفل وكأنه وسيلة تشبيه لحال معشوق. وفئة أخرى تجعل عالم الأطفال مجالاً للتعبير عن عواطف متشائمة مثل اليأس والكآبة والخوف الشديد من الموت. وهكذا ألفينا الشعراء يأخذون صورة الطفل كوسيلة مرآة كما سبق القول.

الكلمات المفتاحية: اللغة العربية وأدبها، الطفل، الطفولة، الشعر العربي، براءة

Abstract

Children are the capital of the nations most important in building a society based on generosity and advancement. The importance of children is not limited to their being constituents of a healthy social life in the future. Rather, their role is to express patterns of a human nature free from the impurities of hypocrisy, sophistication and pretense. Perhaps because of this we express innocent emotions with the word - like a child -. One of the basic functions of literature is to reflect human emotions as they are. That is why we can say that this job intersects with the child and childhood, including the meanings of purity and innocence. Based on this, we find the image of children in Arabic literature, both ancient and modern. In this research, we tried to shed light on how some Arab poets dealt with the image of the child and childhood in their poems. And we found some poets who use the image of the child as a mirror that reflects the image of worldly life with its fluctuations and the speed of being affected by what happened to it and the like. And another section of them considers the child as a means of simulating a loved one. Another category makes the children's world a space for the expression of pessimistic emotions such as despair, gloom, and an intense fear of death. Thus, our poets take the image of the child as a mirror medium, as has been said previously.

Keywords: Arabic Language and rhetoric, Child, Childhood, Arabic poetry, Purity.

Öz

Çocuklar, milletlerin ahlaki erdemler ve ilerlemeye dayalı bir toplum inşasında mecbur oldukları en önemi sermayeleridir. Çocukların bu önemi sadece, gelecekte sağlam bir sosyal bünyenin yapıtaşları olmaları ile sınırlı kalmayıp aynı zamanda gösteriş gibi yapmacık davranışlardan uzak, insan tabiatının en duru ve saf duygularını yansıtır olmalarında kendini göstermektedir. Belki de bu yüzden masumane oluşu ifade ederken -çocuk gibi- ifadesi kullanılmaktadır. Edebiyatın temel görevlerinden birisi beşeri duyguları olduğu gibi yansıtmaktır. Edebiyattan beklenen bu vazife onun yolunun -saf duyguların tercümanı olması itibarıyla- çocuk ve çocukluk teması ile kesişmesine sebep olmuştur. Buna binaen ister klasik ister modern dönem olsun çocuk ve çocuk-

luk temasının Arap edebiyatında sıklıkla örnekleri görülmektedir. Bu çalışmada bazı Arap şairlerinin mezkûr iki temayı şiirlerinde nasıl ele aldıklarına dair tasviri bir inceleme yapılmıştır. Görüldüğü kadarıyla bazı şairler çocuk motifini, dünyanın değişken halleri ve musibetleri karşısında insanın duygusal açıdan teessür altında kalmasını yansıtmak için kullanmıştır. Diğer bir kısmı ise çocuğun hallerine, sevgilinin tavırlarını tasvir etmek için gazel temasında yer vermiştir. Bazılarına göre ise çocukluk, ölüm korkusu, ümitsizlik, depresyon gibi karamsar ve kötümser bir bakışla hayatın nasıl görüldüğünü anlatan en uygun motiftir. Bunlar dışında daha pek çok şair, çocuk ve çocukluğu hayatın bir yansıması olarak ele almıştır.

Anahtar Kelimeler: Arap Dili ve edebiyatı, Çocuk, Çocukluk, Arap şiiri, Safılık.

المدخل

تناول الشعْرُ العربيُّ موضوعَ الطفولةِ، وكان انعكاساً حقيقياً لنظرة المجتمع إلى الطفل، وكيفية التعامل معه في أحواله وتقلباته، فالطفل في مخيلة الشعراء صورة نابضة بالحياة، مفعمة بالبهجة والأمل أحياناً، ومشوبة بالشؤم والحزن أحياناً أخرى، صورة تضحك وتبكي، تتألم وتتعافى، وتعكس المحبة الشديدة للطفل، والتعلق به، والخشية من فقده.

وإذا ما أمعنا النظر في الجوانب التي تناولها الشعراء في موضوع الطفولة فسنجدها متنوعة متباينة، لكن ما يسترعي الانتباه أن أكثر هذه الجوانب حضوراً في الشعر جانب الموت والحياة؛ فالتهنئة بالمولود الجديد والفرح بقدمه، والأسى لفقده ورثاؤه عند موته، سغلاً حزيناً مهماً من الذائقة الشعرية العربية، وعبر الشعر من خلال الطفولة أصدق تعبير عما يعتري الإنسان من التفاؤل وخيبات الأمل في الحياة.

وبالنظر إلى رحلة الطفولة والشعر عبر العصور يمكن ملاحظة تقدم أغراض شعرية على حساب أغراض شعرية أخرى، مع التطور الذي يطرأ على الغرض الشعري الواحد؛ ففي حين أن أغراض التهنته والرتاء تكاد تكون ثابتة في الشعر، فإننا نجد أن التشاؤم بالنت الذي كان سائداً في الشعر الجاهلي، قد تأخر في العصور الإسلامية اللاحقة ليحل محله تدريجياً التعبير عن محبة البنات والتفاؤل بها والاستبشار بقدمها. وعلى صعيد آخر كان التفاؤل بمستقبل الطفل في العصر الجاهلي لا يكاد يتجاوز التفاؤل بزعامة القبيلة والثأر من القتل، لكنه تطوّر فيما بعد ليتفاهل بتولي المناصب كالإمارة والوزارة، والنصر على أعداء الدولة، وتمكين السلطان.

وإذا وسعنا النظر قليلاً وخرجنا من إطار الشعر، فسنجد تطورات بالغة الأهمية على صعيد الشكل أيضاً، مع ظهور القصة والمسرحية والأغنية وغيرها.

وثمة مسألة أخرى مهمة في هذا السياق، وهي أن الطفولة في الأدب العربي في العصور الكلاسيكية، كانت موضوعاً من الموضوعات التي يتناولها، ولم يكن الأدب عموماً والشعر

على وجه الخصوص، متوجهاً إلى الطفل ومخاطباً له - إلا ما ندر -، بمعنى أنه يمكن القول: لم يكن يوجد أدب ينطلق من اهتمامات الطفل، يتحاور معه، ويسبر أغواره، ويعبّر عن مشاعره كإنسان، ويحاول معالجة مشكلاته النفسية والاجتماعية، ويطور مهاراته اللغوية والفكرية؛ بل كان الشعر يتناول الطفولة - غالباً - على أنها موضوع من موضوعاته كعطف الأبوين على أطفالهما، وتفاؤلها بمستقبله وخوفهما عليه وغير ذلك ..

لكن هذه الظاهرة لا تقلل من أهمية الطفولة في الأدب العربي، لأن ما نسيه اليوم اصطلاحاً بأدب الطفل، لم يكن معروفاً في العصور الكلاسيكية، إذ لم يبدأ أدب الطفل بالظهور والتشكل في الآداب العالمية إلا في القرن السابع عشر⁽¹⁾، فلا يمكن محاكمة الأدب العربي الكلاسيكي على ضوء ظاهرة أدبية لم تظهر إلا في العصر الحديث.

في هذه الدراسة يحاول الباحثان تقديم صورة عن أدب الطفولة في الشعر العربي في عصوره الكلاسيكية، وعن كيفية تعامل بعض من الشعراء العرب مع صورة الطفل والطفولة في أشعارهم، وإلقاء الضوء على الحياة الاجتماعية للطفل من خلال الشعر. ولتكون الدراسة أكثر تحديداً فقد تمّ تقييد الحدود الزمانية لها بالعصر العباسي، لتكون أكثر دقة وتعبيراً عن الواقع، وأكثر بُعداً عن الإطالة في الوقت ذاته.

وأتبع البحث في معالجة المادة العلمية منهج الاستقراء والتّحليل، ولم يذكر كل الشواهد الشعرية الواردة في الموضوع الواحد، بل اقتصر على الأهم الذي يفي بالغرض، وذلك خشية الإطالة، والخروج عن الأهداف العلمية للبحث.

:الدراسات السابقة

تناول بعض الأدباء قديماً موضوع الطفولة في مؤلفاتهم، لكنهم لم يُفردوها بالدراسة، فجاء موضوع الطفولة في كتبهم ضمن موضوع الأبوة والبنوة بشكل عام، فذكروا أبواباً تناولت البنوة مطلقاً سواء كان الابن طفلاً صغيراً أم رجلاً بالغاً، ومما ذكروه في هذه الأبواب على سبيل المثال: برّ الأبناء بالأباء والأمهات أو عقوقهم حال الكبر، وأشعار اللوم والعتاب المتبادلة بين الآباء والأبناء، واحتيال الآباء لأبنائهم اليافعين عند الوزراء والأمراء وذوي الشأن بقصد التوظيف والتكسب وغير ذلك..

كما اجتمع فيها الشعر والتثر وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، ولم تختص بعصر شعري محدّد، بل شملت كافة العصور الشعرية إلى عصر المؤلف، وبعضهم ذكر شعر الطفولة في

(1) علي الحديدي، في أدب الأطفال، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط4، 1988م)، 49.

أبواب التّهاني والمراثي ونحوها؛ ومن بين هذه المؤلفات: «زهرة الآداب وثمر الألباب» لأبي إسحاق القيرواني (435هـ/1043م)، و«بهجة المجالس وأنس المجالس» لابن عبد البر (463هـ/1070م)، و«محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» للراغب الأصفهاني (502هـ/1108م).

أما الدراسات المعاصرة فقد وقفت على ثلاث دراسات مهمة في هذا الموضوع؛ وهي: شعر التّهاني في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري: وهي عبارة عن رسالة ماجستير من إعداد أحمد الخزايلة، نوقشت عام 2008م في كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة آل البيت في الأردن، وقد تناولت في أحد أبوابها شعر التّهاني المتعلق بالأطفال في العصر العباسي، لكنها لم تتطرق لباقي الأغراض الشعرية المتعلقة بالطفولة، وذلك لخروجها عن موضوع الرسالة.

مقال على موقع دراسات إسلامية على الشابكة بعنوان: «الأطفال في الشعر العربي»، لأبي عائض القاسمي المباركفوري، لكنه لم يلتزم ببعض شعري معين، وجاءت المقالة خالية من التحليل الأدبي في الغالب، واقتصرت على جمع بعض الأبيات الشعرية في موضوعات متفرقة دون تبويب ولا بيان.

مقالة بعنوان: «الأطفال في الشعر العباسي» منشورة في كلية التربية - جامعة بابل عدد حزيران/2012م، للأستاذ نائر الشمري، وهي دراسة جيدة، ومن أفضل ما وقفت عليه في هذا الباب، إلا أنه بالرغم من أن عنوان المقالة جاء شاملاً لشعر الأطفال في العصر العباسي، لكنها اقتصرت في معظمها على غرض شعري واحد هو غرض الرثاء، وركزت - في الأغلب - على شاعرين فقط هما: بشار بن برد وابن الرومي، ثم إنها أغفلت أغراضاً شعرية مهمة كغرض التشاؤم، ومستقبل الأطفال من منظور الشعراء، والزحيل والسفر وغيرها ..، وما تناولته المقالة سوى الرثاء، جاء مختصراً موجزاً، ولو أن المقالة اقتصرت على شعر رثاء الطفل في الشعر العباسي لكان خيراً والله تعالى أعلم.

الأسلوب في تربية الأولاد

إن أكثر ما يعاني منه الآباء والأمهات في علاقتهم مع أولادهم؛ أن يعتقدوا أن الأولاد - خصوصاً في صغر سنهم - لا يتقيدون بما يوعظون، ولا يُعبرون اهتماماً كما يجب لنصائحهم. وهذه الشكوى منهم أصبحت ظاهرة شائعة.

هل الأَوْلَادُ حقاً لا يبألون بما قاله الأبوان؟ هل ما يصدرُ منهم من نصيحةٍ لا يَلْقَى أذناً واعيةً؟

يريد ابنُ خَفَاجَةَ الإجابةَ على هذه الأسئلةِ بهذه الأبيات: [السريع]

سَدِّدْ مَرَامِي الطِّفْلِ فِي شَأْنِهِ	بَلْفَظَةٍ تَشْدُدُ بِهَا أَرْزَهُ
وَإِكْتَفٍ بِالْمَحَةِ مِنْ فَمِهِ	إِنَّ الْمُبَادِي أَبْدَأُ نَزْرَهُ
أَمَا تَرَى الْبُرْكَانَ مِنْ شَعْلَةٍ	وَالدَّوْحَةَ اللَّفَاءَ مِنْ بَزْرَةٍ (2)

فالشاعرُ يرى أن أذهانَ الأطفالِ تستجيبُ للكلماتِ البسيطةِ مهما كانت قليلةً إذا كانت تقوي عزمهم وتشحذُ هممهم، ويدعو إلى الابتعادِ عن الحشوِ في التَأْدِيبِ، فإنَّ الإلماحَ خيرٌ من الإفصاحِ، والمبادئُ قليلةٌ لا تحتاجُ من المربيِّ الحَصِيفِ إلى إكثارِ الشرحِ.

وكما أنَّ النيرانَ العظيمةَ تبدأُ من شعلةٍ بسيطةٍ، والروضةَ الكثيفةَ تبدأُ من بزرةٍ؛ فإنَّ اتِّباعَ أسلوبِ التدريجِ في التَّعليمِ سبيلٌ من أهم سُبلِ الوصولِ إلى الكمالِ.

لكنَّ هذا لا يعني أن يُتركَ الحبلُ للطفلِ على الغارِبِ فيفسدهُ الهوى والدَّلال، ولذلك فلا بدُّ من الخشونةِ أحياناً إلى جانب الرِّفقِ واللِّينِ، وقد يقسو الإنسانُ أحياناً على شخصٍ لمنفعتهِ؛ على حدِّ قولِ أبي تمامٍ حبيبِ بنِ أوسِ الطائيِّ (231هـ/846م): [الكامل]

فَقَسْنَا لِتَرْدِجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِماً فَلَيْقَسْ أحياناً وَحيناً يَرَحِمُ (3)

وهذا المعنى يُفصِّلهُ ابنُ خَفَاجَةَ فيقول: [الكامل]

نَبِيَّهِ وَلَيْدِكَ مِنْ صَبَاهِ بَرْجَرِهِ	فَلَرَبِّمَا أَعْفَى هُنَاكَ ذَكَوُهُ
وَإِنْهَرُهُ حَتَّى تَسْتَهْلَ دُمُوعُهُ	فِي وَجْنَتَيْهِ وَتَلْتَضِي أَحْشَاوُهُ
فَالسَّيْفُ لَا تَذُكُو بِكَفِّكَ نَارُهُ	حَتَّى يَسِيلَ بِصَفْحَتَيْهِ مَأْوُهُ (4)

فالتنبيهُ بالزجرِ بين الفَيئَةِ والأخرى من شأنِهِ أن يُوقِظَ ذكاءَ الطفلِ، ويُبعدهُ عن الغفلةِ. ولا بأسَ من السَّدَّةِ في الخطابِ أحياناً حتى تشتعلَ عواطفُهُ، وتسيلَ دموعُهُ، فالطفلُ كالسَّيْفِ، لا يقطعُ ولا يشتدُّ حتى يتعرَّضَ حدهُ للنارِ، فيصفو رَوْنَقُهُ، ويظهرَ حسنُهُ.

وبالْبَاحِ المعريُّ في هذا البابِ فقال: [البسيط]

فَاضْرِبْ وَلَيْدِكَ، وَادْلُلَّهُ عَلَى رُشْدِ	وَلَا تَقُلْ هُوَ طِفْلٌ غَيْرُ مُحْتَلِمٍ
وَرَبِّ شَقِيٍّ بِرَأْسِ جِرٍّ مَنْفَعَةٌ	وَقِسْ عَلَى نَفْعِ شَقِيٍّ الرَّأْسِ فِي الْقَلَمِ (5)

(2) إبراهيم بن خَفَاجَةَ (533هـ/1138م)، ديوان ابن خَفَاجَةَ، تحقيق السيد مصطفى غازي، (الإسكندرية: منشأة المعارف، 1960م)، 56.

(3) يحيى بن علي الخطيب البَيْرِيزِي (502هـ/1109م)، شرح ديوان أبي تمام، تحقيق راجي الأسمر، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط2، 1414هـ . 1994م)، 2: 99.

(4) ديوان ابن خَفَاجَةَ، 56.

(5) أحمد بن عبد الله أبو العلاء المعري (449هـ/1057م)، اللزوميات، تحقيق أمين الخانجي، (القاهرة: مكتبة الخانجي)، 2: 314.

فَضْرِبُ الْوَلَدِ ضَرْباً خَفِيفاً غَيْرَ مَبْرَحٍ عِنْدَ الْحَاجَةِ غَيْرِ مُسْتَنْكَرٍ، وَقَدْ أَرَشَدْنَا نَبِيَّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَوَازِ ضَرْبِ الْوَلَدِ عَلَى الصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ عَشْرًا⁽⁶⁾، لَكِنَّ كُلَّ ذَلِكَ مَشْرُوطٌ بِالْحَاجَةِ بَعْدَ التَّدْرُجِ فِي التَّرْبِيَةِ، وَعَلَى أَنْ لَا يَصِلَ إِلَى الْإِيذَاءِ وَشَقِّ الرَّأْسِ، كَمَا اقْتَرَحَ الْمَعْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

وبكُلِّ الْأَحْوَالِ فَإِنَّ خَيْرَ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ الْإِنْسَانُ، هُوَ التَّعْلِيمُ الَّذِي يَتَحَصَّلُ عَلَيْهِ فِي الصَّغَرِ، لِأَنَّهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ يَكُونُ أَلْيَنَ عَرِيكَةً، وَأَكْثَرَ قَابِلِيَةً لِلِاسْتِجَابَةِ لِلتَّأْدِيبِ، فَيَكُونُ كَالْغُصْنِ الطَّرِيِّ الَّذِي سُرْعَانَ مَا يَعْتَدِلُ وَيَتَقَوِّمُ عِنْدَ أَدْنَى جَهْدٍ، بِخِلَافِ الْخَشْبِ الْقَاسِي الَّذِي قَلَّمَا يَنْفَعُ مَعَهُ تَقْوِيمٌ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى أُنْشَدَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُوسِ: [البسيط]

قد ينفغ الأدب الأطفال في صغرٍ وليس ينفغ بعد الكثرة الأدب
إن الغصون إذا قومته اعتدلَّت ولا يلبين إذا قومته الخشب⁽⁷⁾

نظرة متشائمة إلى الحياة من منظور الأطفال

الطفل في نظر بعض الشعراء العرب وسيلة للتعبير عن مشاعرهم المتشائمة تجاه الحياة بخطوبها وضروفها. مثلما يكون الطفل عاجزاً عن دفع ما يصيبه من أدنى مُتْعَبٍ؛ يظلُّ الإنسان مكتوف اليدين عديم الحيل أمام مصائب الحياة التي تتقاذفه كالألواج.

نرى أبا العلاء المعري يجعل حشاً الأم يهمس في أذن الطفل مُشْعِراً إِيَّاهُ بما يترقبه في الدنيا: [البسيط]

نادى حشاً الأم بالطفل الذي إشتملت عليه ويحك لا تظهر ومُت كمدأ
فإن خرّجت إلى الدنيا لقيت أذى من الخواذب بلح القيط والجندا
وما تخلص يوماً من مكارهها وأنت لا بُدَّ فيها بالبع أمدأ⁽⁸⁾

وَيَكُنُّ رَجَمَ الْأُمِّ الْعَطُوفِ يَنَادِي طِفْلَهَا الصَّغِيرَ قَائِلاً: إِيَّاكَ أَنْ تَخْرُجَ إِلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ، فَمَوْتُكَ هُنَا خَيْرٌ مِنْ خُرُوجِكَ إِلَى دِينَا لَا تَجِدُ فِيهَا إِلَّا الْأَذَى وَالْكَرْبَ، فَضْلاً عَنْ شِدَّةِ حَرِّهَا وَبَرْدِهَا، وَلَا تَكَادُ تَنْجُو مِنْ هُمُومِهَا وَمَصَائِبِهَا حَتَّى تَبْلُغَ أَمْدًا بَعِيداً فِي هَذَا الْبَلَاءِ.

ولم يكن أبو العلاء المعري أول من يُخبرُ الوليدَ بما سيحلُّ به في الدنيا. نرى ابنَ الرُّومِيِّ يسبِّهُه في الإيذانِ بشكْلِ مِمَائِلِ: [الطويل]

لما تُؤذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا يكون بكاء الطِّفْلِ سَاعَةً يُؤلِّدُ

(6) عن سيرة بن مغيبة الجهني قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «علِّمُوا الصَّبِيَّ الصَّلَاةَ ابْنَ سَبْعِ سِنِينَ وَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا ابْنَ عَشْرِ». أخرجه محمد بن عيسى الترمذي (279هـ/892م)، الجامع، تحقيق أحمد شاكر وآخرون، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، رقم (407)، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(7) عبد الله الخطيب، صالح بن عبد القوس البصري (167هـ/783م)، (بغداد: دار منشورات البصري، 1967م)، 133.

(8) أبو العلاء المعري، اللزوميات، 1: 259.

لأَوْسَعِ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَأَرْغَدُ
بِما هُوَ لاقٍ مِنْ أَدَاها يُهْدَدُ⁽⁹⁾

وإِلَّا فَمَا يُبْكِيهِ مِنْها وَإِنَّهُ
إِذا أُبْصِرَ الدُّنْيا اسْتَهَلَ كَأَنَّهُ

هكذا يلخص ابن الرومي فلسفته في الحياة، فهو يرى أن سبب بكاء الطفل عند ولادته هو معرفته بما سيلقى من كرب الدنيا وهمومها، وإن لم يكن كذلك فما هو السبب إذن؟! فالدنيا التي سيخرج إليها أوسع وأرحب له من بطن أمه، ومع ذلك فإنه يستهمل صارخاً لحظة ولادته وكأن هنالك من يتوعده بما سيلقى في حياته.

معيشة الصغار مثل الكبار

كثيراً ما تجمع الحياة بين الكبار والصغار في ساحة واحدة، وترنهم بميزان واحد، فيعيش الصغار والكبار حياة واحدة مشتركة، ومن ذلك أن تتعرض الهموم للإنسان صغيراً كما تتعرض له كبيراً.

وفي هذا المعنى قال المعري: [المتقارب]

طُفَيْلاً يَخْبُ بِه فُرْزُلُ⁽¹⁰⁾
وَتَدْعُو الخُطوبُ أَلَّا تُنْزِلُ⁽¹¹⁾

عَدَا كُلُّ طِفْلِ عَلَى عُمُرِهِ
يَوَدُّ ثَبَاتاً عَلَى ظَهْرِهِ

فكأن كل طفل في نظر أبي العلاء المعري قد امتطى فرس الطفيل بن مالك وجد به مسرعاً، راجياً أن يثبت على ظهره قبل أن تدركه المصائب، في حين أنها تتخطفه من كل جانب، وتدعوه إلى التزول لساحتها.

تشبيه الدنيا بالطفل

تنوعت وجهات النظر التي نظر بها الشعراء إلى الدنيا، وتقلب أحوالها؛ فبعضهم رآها كامرأة حسناء، وبعضهم رآها جيفة، وبعضهم رآها كأحلام النائم، كابن عبد ربه الأندلسي حيث قال: [الطويل]

وما خبزُ عيشٍ لا يَكُونُ بدائمٍ
فَأَفْتِنَيْتُهَا، هل أنتِ إِلا كَحَالِمِ⁽¹²⁾

إِلَّا إِنَّمَا الدُّنْيا كأَحلامِ نائمٍ
تَأْمَلُ إِذا ما نِلْتَ بِالأمسِ لَذَّةً

أما عبد الواحد بن نصر البغلاء، فقد رأى فيها صوراً متنوعة في وقت واحد، ومن بين هذه الصور أنها كالطفل الصغير فقال: [الوافر]

(9) علي بن العباس ابن الرومي (283هـ/986م)، ديوان ابن الرومي، شرح: أحمد بنسج، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط3، 1423هـ. 2002م)، 374: 1.

(10) فُرْزُلُ هو فرس الطفيل بن مالك العامري، وكان شديد السرعة في الفرار من العدو. ينظر: محقق اللزوميات، 1: 198.

(11) المعري، اللزوميات، 1: 198.

(12) أحمد بن عبد ربه (328هـ/940م)، ديوان ابن عبد ربه، تحقيق محمد رضوان الداية، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1399هـ. 1979م)، 152.

هي الدنيا تقول بملء فيها
ولا يغرركم حسن ابتسامي
هي الدنيا أنتبهها بشهد
هي الدنيا كمثل الطفل بينا
ألا يا قومنا أنتهوا فإننا
نحاسب يوم القيامة دون شك⁽¹³⁾

فالدنيا في رأي الشاعر غير مأمونة الجانب، لأنها سريعة الثقلب، شديدة الفتك بعد الراحة، ولا تظهر الابتسام إلا وهي تضر الغدر، فهي كالشهد المسموم، وكالميتة المكسوة بالطيب، وهي أيضاً كالطفل المتقلب المزاج الذي إذا ما قهقهة فرحاً وسروراً سرعان ما بكى حزناً وجزاعاً، ولذلك فشان العاقل أن لا يغرر بظاهر الدنيا، وأن يتبته إلى ما وراءها من الحساب بين يدي الله تعالى يوم القيامة.

الفرح بالمولود والتهنئة بقدومه

يُضفي الولد على الحياة معاني جديدة، تملأ نفس الأبوين سعادة وبهجة، ولم يكن الشعراء بعيدين عن هذه المشاعر، فقد أولعوا بأبنائهم حباً وشغفاً، وصاغوا ذلك شعراً رائعاً، وقد وصف أحمد بن أبي فتن (نحو 270هـ/883م) شراً بقدومه إليه فقال: [الرجز]

أطيب في الأنف إذا
جاءتك من ريح الولد⁽¹⁴⁾

ويشته أبو تمام رجلاً زاد به الحذر من الناس عن حده بالشخص الذي أعجب بشعره، أو أفتن بولده، فهو يخاف عليه من أدنى شيء، ولا يلقي بالألسواه: [الكامل]

ويبيء بالإحسان ظناً لا كمن
هو بائنه وبشعره مفتون⁽¹⁵⁾

وبلغت محبة أبي إسحاق الحراني إبراهيم بن زهروان (384هـ/994م) لولده أنه يتجاوز عن زلاته، ويغفر له عقوقه بحقه؛ شفقه عليه من أن يقع عليه غضب الله بسبب هذا العقوق؛ فقال: [البيسط]

أرضى عن ابني إذا ما عفتني خدباً
عليه أن يغضب الرحمن من غضبي⁽¹⁶⁾

(13) عبد الواحد بن نصر المخزومي المعروف بالبيغاء (398هـ/1007م)، ديوان البيغاء، تحقيق سعود عبد الجابر، (عمان: دار الحامد، ط1، 2004م)، 110.

(14) الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني (502هـ/1108م)، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، (بيروت: دار الأرقم، ط1، 1420هـ)، 1: 391.

(15) شرح ديوان أبي تمام، 2: 168.

(16) ياقوت الحموي (626هـ/1228م)، معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق إحسان عباس، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1993م)، 1: 150.

وكثيراً ما رأى أهل الأدب والشعر في الطفولة فرحاً وأملاً، وحياةً متجددةً، واستمراراً للذكر، ولذلك اشتهر في شعرهم شعراً التّهاني بالمولود، خصوصاً إذا كان والدًا هذا الطفل من أهل الرياسة والشرف.

وهذا أبو عليّ الفضل بن جعفر البصير يهنيُّ أخاً له بمولوده الجديد فيقول: [المتقارب]

أتبتك جذلانٌ مُستبشراً
لئبشراك لما أتاني الخبز
أتاني البشيرُ بأنْ رُزقتُ
غلاماً فأبّهجني ما ذكرُ
فعمرك الله حتى تزا
هُ قد قارب الخطو فيه الكبرُ (17)

فقد أتى من فوره إلى صديقه تغمزه السعادة والبهجة، مُهتئاً له بهذه البشارة الجميلة، وداعياً بطول العمر للمولود والوالد معاً.

ولما أتت الصحاب ابن عبّاد (385هـ/995م) البشارة بسبطه أبي الحسن عبّاد - وكان أبوه علياً - أنشأ يقول: [مجزوء الرمل]

أحمدُ الله للبشري
إذ حبانني الله سبطاً
مرحباً ثمة أهلاً
نبويّ علويّ
أقبلت عند العشي
هو سبط للنبي
بغلام هاشمي
حسنيّ صاجبي (18)

ثم قال: [البسيط]

الحمدُ لله حمداً دائماً أبداً
إذ صار سبط رسول الله لي ولداً (19)

فقال أبو محمد الخازن (20) على وزنه ورويّه قصيدة؛ منها:

بشري فقد أنجز الإقبال ما وعداً
وقد تفرّغ في أرض الوزارة عن
لله آية شمسٍ للعلّاء ولدت
يا دهره حق أن تزهي بمولده
وكوكب المجد في أفق الغلا صعداً
دوح الرسالة غصن مورق رشداً
نجماً وغاية عزٍ أطلعت أسداً
فمثلته منذ كان الدهر ما ولداً (21)

وفى إقبال الدهر بمواعيده، وتألق نجم الصحاب في سماء المجد، فوهب من فوعه غلاماً جميلاً، استمد من أصالة أبويه الرفعة والعزة؛ فكيف لا يحقّ لزمانه أن يفرح به، وهو الغلام الذي لم يولد مثله أحد.

(17) يونس السامرائي، ديوان أبي علي البصير (255هـ/869م)، (بيروت: دار المواهب، ط1، 1419هـ. 1999م)، 29.

(18) عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا (281هـ/894م)، قرى الضيف، تحقيق عبد الله المتصور، (الرياض: أضواء السلف، ط1، 1997م)، 3:

277، وعبد الملك بن محمد أبو منصور النعالي (429هـ/1037م)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق مفيد قمحية، (بيروت:

دار الكتب العلمية، ط1، 1403هـ. 1983م)، 3: 277.

(19) المراجع السابق.

(20) كذا وقعت كنيته ولقبه في «يتيمة الدهر» و«قرى الضيف» وغيرهما، ولم أهد إلى اسمه ونسبه على وجه الدقة.

(21) المراجع السابقة.

ومن وجهة نظر أبي العتاهية فإنَّ الفرحَةَ بقدوم المولودِ الجديدِ تملأُ الحياةَ بأرضها وأملأكِها
سعادةً وسروراً، وتُلهمُ الخطباءَ بِالخُطبِ التي تهتُّ لها أعواد المنابر طرباً؛ قال مهتئاً الهادي
بميلادِ ولده: [البيسط]

فاكتسنتِ الأرضُ بهِ بهجَةً واستبشَّرتِ الملكُ بميلادهِ
وَابتَسَمَ المنبَرُ عن فرحةٍ علَّتْ بها ذرْوَةٌ أَعوادهِ (22)

أما أبو هلالٍ العسكريُّ فقد امتلأَ قلبُهُ بهجَةً وفخراً حينما قال مهتئاً بمولودِ: [البيسط]

فاستقبلَ الخيرَ في نجيب عمّا يَعيبُ الورى نزيه
شمسُ نهارٍ وبدنٌ ليلٍ يملكُ أبصارَ ناظريه
يملاها بهجَةً إذا ما كشفت عن وجهه الوجيهِ (23)

فهو مولودٌ نجيبٌ نزهةُ الله عن ما يعترى الخلقُ عادةً من العيوبِ، ملأَ وجههُ المُقدِّمُ أبصارَ
ناظريه سعادةً وبهاءً، حتى كأنه شمسٌ في نهارٍ أو بدرٌ مضيءٌ في ليلٍ حالِكٍ.

وقال مهتئاً بمولودٍ آخر: [الكامل]

قد زانني عددُ الكرامِ كريمٍ للعرِّ قِرْنٌ والسيماكِ نديمٍ
عالي المحلَّةِ لا يزال كأنه حظُّ بتخليدِ السُرورِ زعيمٍ
فأبشُرُ فقد وَاذاك يومٌ رزقته وغداً إذا نزلَ العظيمُ عظيمٍ
وهو الوجيهُ إذا تبدَّى وجههُ تَصَفُّو وتَسَلُّسُو أو يُقالُ نَسِيمِ (24)

لقد انضمَّ إلى معشرِ الكرامِ في هذه الحياةِ فردٌ آخرٌ، لكنَّه متميِّزٌ عنهم لأنَّه خالِصُ الكرامةِ،
عالي المنزلةِ، للعرِّ قيرنٌ، ولمراتبِ الرَّفعةِ صديقٌ ملازمٌ، ولذلك حُفَّتِ البشارةُ لأبيه به، فقد
حازَ بهذا المولودِ حظاً عظيماً، وسروراً بالغاً. وقد توسَّمتِ الشاعرةُ في هذا المولودِ علاماتِ السيادةِ
في وجهه، وتفاءلَ له بأنَّه في قابلِ أيَّامِهِ سيكونُ عظيماً في قومه إذا ما نزلتْ بهم النَّازلاتُ،
ولذلك هتأَ والدَّه بقرارةِ العينِ فيه فإنَّ أخلاقَهُ الحميدةَ ستصفو بين النَّاسِ فلا يجدونَ منهم إلا
ما يحبُّونَ، وإذا مرَّ بهم مرَّ كالنسيمِ العليلِ.

بشارة البنت

جاء الإسلامُ فهذَّبَ النفوسَ، وقضى على عاداتِ الجاهليةِ، وكان من بين تلك العاداتِ
التَّشاورُ بالبنتِ وتفضيلُ الذَّكرِ؛ فلم يُعدْ ثمةَ فرقٌ بين الذَّكرِ والأنثى، فالكلُّ هبةُ المولى سبحانه

(22) إسماعيل بن القاسم أبو العتاهية (210هـ/826م)، ديوان أبي العتاهية، (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ط1، 1406هـ. 1986م)، 156.

(23) الحسن بن عبد الله أبو هلال العسكري (بعد 395هـ/1004م)، ديوان المعاني، تحقيق أحمد حسن بسبح، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1414هـ. 1994م)، 97.

(24) أبو هلال العسكري، ديوان المعاني، 97.

وتعالى، وقد سوّلت نفسُ البعض له أن يعودَ إلى تلك العادةِ الذميمةِ، فما إن شَمَّ منه الشاعرُ عليّ بنُ محمدِ الحِمَانيّ هذا الأمرَ حتى أجابه قائلاً:

قالوا له: ماذا رُزِقْنَا؟
وأجلُّ مَنْ وُلِدَ النَّسَا
إِنَّ الَّذِينَ تَوَدُّ مِنْ
نالوا بفضلِ البنْتِ ما
فأصاخ، ثَمَّةَ قال: بِنْتًا
ء أبو البناتِ فَلِمَ جَزَعْنَا؟
بين الخلائقِ ما استطعنا
كَبَبْنَا به الأعداءُ كَبَبًا (25)

سَكَتَ الشَّاعِرُ قَلِيلًا لِأَنَّهُ يَعْرِفُ الْمَقْصُودَ بِالسُّؤَالِ، ثُمَّ قَالَ رَافِعًا صَوْتَهُ: لَقَدْ رُزِقْنَا بِنْتًا، وَقَدْ كَانَ أَعْظَمُ النَّاسِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبًا لِلْبَنَاتِ فَلِمَ تَجَزَعُ أَنْتَ مِنْ وِلَادَةِ الْبِنْتِ؟!، إِنَّ أَشْرَافَ النَّاسِ الَّذِينَ تَطْمَعُ أَنْ تَكُونَ مِثْلَهُمْ قَدْ بَلَّغُوا بِفَضْلِ الْبِسَاءِ مِنْ مَعَالِي الْأُمُورِ مَا أَهْلَكُوا بِهِ أَعْدَاءَهُمْ.

وفي هذا المعنى ينهى الصّاحبُ ابنُ عبّادٍ إنكارَ البناتِ فيقول:

إياك أن تنكرَ الإناثَ فكم
أنتى غدثٌ في فخارها دُكرٌ (26)

يقول: إياك أن تتبرّم بالأنثى، فكثيراً ما كانتِ البنتُ كعظيمِ الرّجالِ سبباً في فخرِ أهلها.

وهكذا أضحّتِ البنتُ في عيون الشعراءِ قوّةَ عينِ أبيها، ومُهَجّةَ فؤاده، وقد هنا الشريّفُ

الرّضويّ أخاً له بمولودته فقال: [المتقارب]

بمَوْلِدِ عَزَاءٍ أَعْطَيْتِهَا
أَغَارَتِ عَلَى الْحُسْنِ أَسْبَابُهَا
بُدُوْ الأهلّةِ بَعَدَ السِّرارِ
فَأَسْبَابُهُ عِنْدَهَا فِي إِسَارِ (27)

يعني أقرّ الله عينك بطفلةِ كالبدرِ الطّالعِ بعد الاختباءِ في جمالها، وهبها الله من أسبابِ الحسنِ

حتى لكأنَّ الحسنَ وأسبابه صار أسيراً عندها.

وكتبَ إبراهيمُ بنُ محمدِ المعروفُ بظهيرِ الدّينِ البارزويّ (680هـ/1281م) إلى شخصٍ وهبهُ

الله تعالى توأمين ذكرًا وأنثى من جاريةٍ سوداءٍ: [الطويل]

وخصّك ربُّ العرشِ منها بتوأمٍ
وأمرُك أضجى وارثاً علمَ جابرٍ
ومن ظلماتِ البحرِ تُستخرَجُ الدُّرُورُ
فأعطاك من إلقائه الشمسِ والقمرُ (28)

(25) علي بن محمد الحماني (301 هـ/914م)، ديوان الحماني، تحقيق محمد الأعرجي، (بيروت: دار صادر، 1998م)، 202، وعبد الملك

بن محمد أبو منصور النعالي، اللطائف والظرائف، (بيروت: دار المناهل)، 180.

(26) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 1: 486.

(27) محمد بن الحسين الشريف الرضي (406 هـ/1015م)، ديوان الشريف الرضي، (إيران: منشورات مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامي، ط1،

1406 هـ، 1: 466.

(28) خليل بن أبيك الصفدي (764 هـ/1363م)، الوافي بالوفيات، تحقيق س. ديدريغ، (شتوتغارت: دار النشر فرانز شتاينر، ط3، 1411 هـ.

1991م، 6: 179.

كَأَنَّ هَذِينَ التَّوَامِينَ جَوْهَرَتَيْنِ مُسْتَخَرَجَتَانِ مِنْ أَعْمَاقِ الْبَحْرِ، وَكَأَنَّ الْأَبَّ حِينَمَا أَظْهَرَ هَاتَيْنِ الْجَوْهَرَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَشْبَهُانِ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ مِنَ الْجَارِيَةِ السُّودَاءِ؛ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ وَرِثَ عِلْمَ الْكِيمِيَاءِ مِنْ جَابِرِ بْنِ حَيَّانَ.

الاستبشار بمستقبل الطفل

حينما تؤذن الحياة بميلاد طفلٍ جديدٍ، فإنها تؤذن بأملٍ جديدٍ أيضاً، ولذلك كانت الطفولة دافعةً لكثيرٍ من الشعراء إلى الابتعاد عن التشاؤم، ومُلهمَةً لهم لينظروا إلى المستقبل نظرةً متفائلةً؛ ومن هؤلاء الشعراء أبو العلاء المعري الذي تخلى - أحياناً - عن تشاؤمه الذي عُرف به، وغَيَّرَ من قناعاته فقال في حقِّ الصَّغارِ: [البيسط]

لا تَرْدُرُنَّ صِغَاراً فِي مَلَاعِيهِمْ
فَجَائِزُ أَنْ يُزَوَّا سَادَاتِ أَقْوَامِ
وَأَكْرَمُوا الطِّفْلَ عَن نَكْرِ يُقَالُ لَهُ
فَإِنْ يَعْشَ يُدْعَ كَهَلًا بَعْدَ أَعْوَامِ (29)

فهو يدعُو إلى عدم تحقير الطفل، لأنَّه ربَّما كان سيِّدَ قَوْمِهِ فِي قَابِلِ أَيَّامِهِ، ولذلك لا بدَّ من إكرام الطفل والحنوِّ عليه وإنَّ ظهر منه بعضُ ما يُستنكر، فعَمَّا قَرِيبٍ يَغْدُو كَهَلًا مَكْتَمَلِ المَرْوَةِ والرَّجُولَةِ.

والتفاؤُلُ بمستقبل الطفولة أمرٌ شائعٌ عند الشعراء سِيَّما إذا كان الطفلُ من أبناء الخلفاءِ أو الأمراءِ والوزراءِ، وقد اعتنى الشعراء بهذا الجانبِ عنايةً كبيرةً؛ فلا أَحْظَى للشاعرِ عند صاحبِ الجاهِ والمنصبِ من الساعةِ التي يَغْتَنِمُ فِيهَا مِشَاعَرَ سَعَادَتِهِ بِأَوْلَادِهِ وَذَرِيَّتِهِ، فِيمَدِّحُهُ وَيَمْدَحُ أَبْنَاءَهُ بِمَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُهُ فِي مُسْتَقْبَلِهِمْ.

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي (235 هـ/850م) يمدحُ الفضلَ بنَ الرِّبيعِ: [الرجز]

مَدَّ لَكَ اللَّهُ الْبَقَاءَ مَدًّا
حَتَّى تَرَى نُجْلَكَ هَذَا جَدًّا
مُؤَزَّرًا بِمَجْدِهِ مُرَدِّي
تَمَّ يُفْدَى مِثْلَمَا تُفْدَى
كَأَنَّكَ أَنْتَ إِذَا تَبَدَّى
شَمَائِلًا مَحْمُودَةً وَقَدًّا (30)

فهو يدعُو له ولولده بطول البقاء، وحتَّى تَقَرَّ عَيْنُهُ بِرُؤْيَةِ وَلَدِهِ مَنصُورًا مَاجِدًا يُفْدَى - كَأَبِيهِ - بِالْأُرُوحِ وَالْمُهَجِّ، وَيَكُونُ صُورَةً مِمَّا تَلَّهُ لِأَبِيهِ أَخْلَاقًا وَسِيرَةً.

وفي هذا المعنى أيضاً يمدحُ أبو العتاهية ولدَ الخليفة الهادي فيقول: [البيسط]

كَأَنَّي بَعْدَ قَلِيلٍ بِهِ
بَيْنَ مَوَالِيهِ وَقُوَادِهِ
فِي مَحْفَلٍ تَخْفِقُ رَايَاتُهُ
قَدْ طَبَّقَ الْأَرْضَ بِأَجْنَادِهِ (31)

(29) أبو العلاء المعري، اللزوميات، 2: 317.

(30) محمد بن الحسن بن حمدون (562هـ/1166م)، التذكرة الحمدونية، (بيروت: دار صادر، ط1، 1417هـ)، 4: 168.

(31) ديوان أبي العتاهية، 156.

أما السَّرِيُّ الرَّفَّاءُ فقد دعا سيفَ الدولة لِيَتَمَلَّى من رُؤْيَةٍ وُلِدِهِ الذي سَيَكُونُ له من عَزِيزِ الخِصَالِ ما بِمِثْلِهَا يَنْتَشِرُ ذِكْرُهُ كِفَارِسِ مِغْوَارِ حَامِلِ سَيْفِهِ الصَّارِمِ البَّتَّارِ، نَاصِراً لِلْمَجْدِ مَنْصُوراً به، حَتَّى إِنَّ سَيْفَهُ تَثَلَّمَ، وَرَمَحَهُ اعْوَجَّ لِشِدَّةِ ما فَتَكَ بِأَعَادِيهِ: [البسيط]

تَمَلَّ فَارِسُكَ الْمَذْكُورَ فِي شَيْمٍ	بِمِثْلِهَا الذِّكْرُ الصَّمْصَامُ مَذْكُورٌ
وَافِي وَمَوْلِدُهُ الْمُوفِي بِخَبْرُنَا	بِأَنَّهُ نَاصِرٌ لِلْمَجْدِ مَنْصُورٌ
حَتَّى نَرَاهُ وَحَدَّ السَّيْفِ فِي يَدِهِ	مُتَلَّمٌ وَسِنَانُ الرُّمَحِ مَأْطُورٌ (32)

وربما تعجَّلَ بعضُ الشعراءِ مُسْتَقْبَلَ الطِفْلِ، فَحَثُّوا أباهُ أَنْ يَصْنَعَ لَهُ مُسْتَقْبَلَهُ فِي حَاضِرِهِ! كما فَعَلَ أَبُو عَلِيٍّ البَصِيرُ حينما دَعَا أَحَدَ خِلفاءِ العِباسِيِّينَ لِيَكْتُبَ لِابْنِهِ الصَّغِيرِ بولايَةِ عَهْدِهِ، مُتَذَرِّعاً بِمِكانَتِهِ وَبِكَمالِ عَقْلِهِ، وَمُسْتَشْهِداً بِيُحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامِ الذي آتاه اللهُ العِلْمَ صَبِيّاً، وَبِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامِ الذي كَلَّمَ النَّاسَ فِي مَهْدِهِ؛ قال أبو عليٍّ: [الطويل]

فَوَلِّ ابْنَكَ العِبابَ عَهْدَكَ إِنَّهُ	له مَوْضِعٌ، وَاكْتُبْ إلى النَّاسِ بِالعَهْدِ
فإنْ خَلَفْتَهُ البَيْنُ فَالعَقْلُ بِالْغُ	به رِتبَةٌ الشَّيْخِ المَوْفِيُّ لِلرُّشْدِ
وَقَدْ كانَ يُحْيَى أوتَى العِلْمَ قَبْلَهُ	صَدِيقاً وَعِيسَى كَلَّمَ النَّاسَ فِي المَهْدِ (33)

مُسْتَقْبَلُ الطِفْلِ وَغَيْظُ الحُسادِ

كثيراً ما تَلازَمَ عِندَ الشُّعراءِ التَّفَاوُلُ بِالطُّفُولَةِ مَعَ غَيْظِ الحاسِدينِ وَمِكابِدَتِهِم، وَتَلازَمَتْ التَّهَنُّةُ بِقَدومِ الوَلدِ مَعَ التَّشْفِيِّ بِمِشاعِرِ الكارهِينَ لِأبيهِ.

قال الشَّريفُ الرُّضِيُّ مَهْتَباً أَخاهُ لَهُ بِمَوْلودِهِ الجَدِيدِ: [الطويل]

لِيَهَنِّكَ مَوْلُودٌ يُولَدُ فَخْرَهُ	أَبُّ بَشْرُهُ لِلسَّائِلِينَ ذِرائِعُ
وَمِيبَسِيمِ بَرْتَجٍ فِي ماءِ حُسْنِيهِ	له مِنْ عِيونِ النَّاظِرِينَ فِواقِعُ
رَمَى الدَّهْرُ مِنْهُ كُلَّ قَلْبٍ مِنَ العِدا	بِسَهْمِ نَصْنا أَحقادَهُم وَهُوَ وادِعٌ (34)

فَخَرُّ هِذا المَوْلُودِ نابعٌ مِنْ فَخْرِ أبِيهِ، وَوَصاءَةٌ وَجْهَهُ وَسِيلَةٌ تُغري السَّائِلِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَابْتِسامَتُهُ التي تَعَلو جِمالَ مَحِيَّاهُ كافِيَةٌ لِتَفقُّ عِيونَ حاسِديهِ، كما رَمَى الدَّهْرُ مِبعْضِيهِ بِسَهْمِ فَتاكِ أَصابَ أَفئدَتِهِم بِلا أدنى تَعَبٍ مِنْهُ.

ووصَفَ أَبُو العِتابِيَةِ حَالَ الخَلِيفَةِ موسى الهادِي مَعَ حاسِديهِ، وَتَكَبَّرَهُ عَلَيْهِم بِقولِهِ: [البسيط]

أَكثَرَ موسى غَيْظُ حُسادِهِ	وَزَيَّنَ الأَرْضَ بِأولادِهِ
وَجاءَنا مِنْ صُلْبِهِ سَيْدٌ	أَصْنيدٌ (35) فِي تَقطِيعِ أَجدادِهِ (36)

(32) الشَّريُّ بنُ أَحمدِ الوُفَاءِ (362هـ/972م)، ديوان الشَّري الوُفَاءِ، تَحقيقُ كَرمِ البِستاني، (بيروت: دارِ صَادر، ط1، 1996م)، 177.

(33) ديوان أبي علي البصير، 26.

(34) ديوان الشَّريفِ الرُّضِيِّ، 1: 613.

(35) الأُشيدُ هو الذي يَرفَعُ رأسَهُ كِبراً، وَمِنهُ قَبْلَ لِلْمَلِكِ أُشيدَ. مُحَمَّدُ بنُ مَكْرَمِ بنِ مَنظُورِ (711هـ/1311م)، لسانِ العَربِ، (بيروت: دارِ صَادر)، 3: 260.

(36) ديوان أبي العتابية، 155.

وكتب أبو بكر الصُّولِيُّ إلى عُقْبَةَ بنِ أَهْبَانَ: [الوافر]

حَبَاكَ الإلهُ بإحسانه
بمولودٍ يُمنِّي نَمَاءَ الإلهِ
بَغِيظِ العِدَا وسُرورِ الخليلِ
هُ سعيِدُ الجدودِ كريمِ القَبيلِ (37)

يقول له: وَهَبَكَ اللهُ بَجودِهِ وكرَمِهِ بمولودٍ يسُرُّ أهْلَ مودَتِكَ وَحُحْلَتِكَ، وَيَغِيظُ أهْلَ عداوتِكَ وَبغضِكَ، وهو مولودٌ خيرٍ وبركةٍ، شريفُ النَّسبِ والقبيلةِ.

الطفل ومناسباته الاجتماعية

لم يكتفِ الشعراءُ في كلامهم حولِ الطفولةِ بمواضيعِ الرِّثاءِ والتهنئةِ والتربيةِ، فتناولوا أيضاً المناسباتِ الاجتماعيةِ التي يكونُ الطفلُ محوراً لها، وهذا الصَّاحِبُ بنِ عَبَّادٍ يفتخرُ بِفِطَامِ سَبْطِهِ فيقول: [المجتث]

فُطِمْتُ أيا عَبَّادُ يا ابنَ الفواطمِ
لئنُ فُطِمُوهُ عن رِضَاعِ لبائِهِ
فقال لك السَّادَاتُ من آلِ هاشمِ:
فما فُطِمُوهُ عن رِضَاعِ المَكَارِمِ (38)

كان زوجُ بنتِ الصَّاحِبِ من آلِ البيتِ، ولذلك قالتُ ساداتُ بني هاشمٍ لولدهِ لَمَّا فُطِمَهُ: لقد فُطِمُوكَ عن رِضَاعَةِ الحليبِ، ولكنَّ رِضَاعَتَكَ للمَكَارِمِ منهم فلنُ تنقطعُ، في إشارةٍ إلى شرفِ أصلِهِ ونسبِهِ.

وهنَّأ ابنُ الخياطِ أحدَ كبارِ رجالِ الدَّولةِ في خِتانِ ابنِهِ، فلم يرَ في يومِ طَهْورِهِ إلا مظاهرَ الفرحِ والسرورِ، واستغربَ كيف لِمَن كان مثلهُ في الجمالِ والوَضَاءَةِ وشرفِ النَّسبِ الطَّاهِرِ أنْ يُلتَمَسَ له الطُّهُورُ؟! فقال على سبيلِ المُشاكَلَةِ: [الكامل]

لم تَلَحَّظِ الأَبْصارُ يومَ طَهْورِهِ
فَمَرَّ يُضِيءُ جَمالَهُ وكمالَهُ
إلا كُؤُوساً لِلسُّرورِ تُدَارُ
حَتَّى يُعَيِّدَ اللَّيْلَ وَهُوَ نَهَارُ
ومِنَ العجائبِ أنْ تُرُومَ لِمِثْلِهِ
طُهْرًا وكيفَ يُطَهَّرُ الأَطْهَارُ (39)

وكذلك قال أبو عليِّ البصيرُ في تهنئتهِ بختانِ مولودٍ من آلِ البيتِ أيضاً في أسبوعِهِ

[الأول: المتقارب]

وطَهَّرْتَهُ يومَ أسبوعِهِ
ومِنَ قَبْلِ في الذِّكْرِ ما قد طَهَّرُ (40)

مُشيراً إلى قولهِ تعالى في الذِّكْرِ الحَكِيمِ: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) [الأحزاب: 33].

(37) محمد بن يحيى بن عبد الله أبو بكر الصولي (335هـ/946م)، أخبار الشعراء المسمى بالأوراق، (القاهرة: شركة أمل، 1425هـ)، 1: 247.

(38) الثعالبي، يتيمة الدهر، 3: 280.

(39) أحمد بن محمد ابن الخياط (517هـ/1123م)، ديوان ابن الخياط، (النجف الأشرف: المطبعة العلوية، ط1، 1343هـ)، 97.

(40) ديوان أبي علي البصير، 29.

مَن احتَمَلَ الهمَّ خوفاً على أولاده

قال إسحاق بن خَلَفِ المعروف بابن الطيب (230هـ/844م) في بنتِ أختِ له كان ربَّها: [البيسط]

لولا أُميمةٌ لم أجزع من العدم ولم أفاش الدُّجى في جنِّيسِ الظُّلمِ
أحاذرُ الفقرَ يوماً أن يُلِمَّ بها فَيَهْتِكُ السِّتْرَ عن لحمٍ على وضمِّ
تَهوى خيَّاتي وأهوى مؤثِّها شفقاً والموتُ أكرُمُ نزالٍ على الحُرْمِ (41)

بلَغَ الهمُّ من شاعرِنَا مبلغاً عظيماً؛ فقد أسهَرَ ليلَه معتمداً من التفكيرِ خشيةً مستقبل هذه الطفلةِ، خائفاً عليها من الفقر الذي قد يُلجئها إلى ما يهتِكُ سِتْرَ الحرَّةِ. والمفارقةُ أنَّها تحبُّ له الحياةَ ويحبُّ لها الموتَ! لا كرهاً لها بل لقناعتهِ أنَّ الموتَ خيرٌ ما ينزلُ من المصائبِ بشرفِ الرجلِ.

هذا الهمُّ جعلَ كثيراً من الشعراءِ ينظرونَ إلى الطفولةِ على أنَّها المعرُومُ وأعباءُ الحياةِ، فعندَ أبي العلاءِ المعريِّ يأتي الطفلُ إلى الحياةِ حاملاً همومه معه: [البيسط]

يُكسى الوليدُ جديداً العُمرَ يُلْبِسُهُ وكلُّ يومٍ يرثُ المُلبَسَ العَالي (42)

فكمَا يكتسبي الطفلُ عمراً جديداً بقدمه إلى الحياةِ، فإنه يحتاجُ إلى اللباسِ وسائرِ متطلباتِ البقاءِ.

ويتابع في موطنٍ آخرَ نظرتُه المتشائمةَ فيقول: [الوافر]

أرى ولداً الفتى كلًّا عليه لقد سعَدَ الذي أمسى عَقِيماً
أما شاهدتَ كلَّ أبي وليدٍ يومُ طريقٍ حثِّفَ مُستقيماً
فلما أن يربِّيهِ عدواً وإمّا أن يخلُفه يتيماً (43)

كلُّ طفلٍ في الحياةِ عبءٌ ثَقيلٌ على أبيه، فيالسعادةِ العقيمِ! ألم تر أن كلَّ والدٍ سائرٌ إلى حثِّفه لا مَحالةً؛ لأنَّه إمّا أن يكبرَ ولدهُ فينكرَ فضلَه ويصيرَ عدواً له، وإمّا أن يموتَ الوالدُ فيتركَ ولدهُ فقيراً يتيماً.

ومخافةُ المعريِّ من أن ينكرَ الولدُ فضلَ أبيه، ويصيرَ عدواً له عندما يكبرُ ويشتدُّ ساعدهُ؛ ظهرتُ في غيرِ موضعٍ من شعره، ومنها قوله: [البيسط]

رَبَّيتُ ثيبلاً، فلما أن عَدَا أسداً عَدَا عليكِ فلو لا رَبُّهُ أَكَلَكِ (44)

وتَسأَلُ أبو إسحاقَ الحرَّانيُّ عن هذه الإشكالية التي تواجهُ المرءَ في الحياةِ فقال: [البيسط]

ولسنتُ أدري لم استحققتُ من ولدي إقذاءَ عيني وقد أفزرتُ عينَ أبي؟! (45)

(41) محمد بن شاعر الكتبي (764هـ/1362م)، فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، ط1، 1973م)، 1: 164.

(42) اللزوميات، 2: 231.

(43) المرجع السابق، 2: 300.

(44) المرجع السابق، 2: 167.

(45) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 1: 150.

وقال المعريُّ حول هذه المعاني أيضاً: [السرّيع]

كَمْ صَرَفَ الْمَوْلُودُ عَنِ الْوَالِدِ خَيْراً وَكَمْ أُمٌّ لَهُ لَمْ يَكُنْ
الرُّبُعَ لِلزَّوْجَةِ إِنْ لَمْ يَكُنْ نَسْلاً وَإِنْ كَانَ عَدَتْ بِالثَّمَنِ
وَالزَّوْجُ يَزُودُ النِّصْفَ أَبْنَاؤُهُ عَنْهُ وَفِي الذَّهْرِ خُطُوبٌ كُفُنْ (46)

بالكثرة ما صرف المولود عن أبيه وأمه الخير والبركة؛ ومن أدلة ذلك أن الأم تترث من زوجها الربع إن لم يكن لها ولد، ولكنها تعود بالثمن في حال الولد، وكذلك الأمر مع الأب في ميراثه من زوجته، فأولاده يحرمونه النصف ويعودون به إلى الربع من التركة .

ويرى ابنُ حمديس أن المولود إذا ورث فاقه أبيه وفقره، فتلك العلة التي لا دواء لها، ولا حيلة تنفع لدفعها؛ فقال: [الطويل]

إِذَا وَرَثَ الْمَوْلُودُ عَلَّةً وَالِدٍ فَعَدَّ بِهِ عَنِ حَيْلَةِ الثُّرَيِّعِ وَالطَّيِّبِ (47)

ولأجل ما سبق رأى ابنُ سنان الحفاجي أنه لا فائدة من الولد، ومن ظن غير ذلك فقد ضلّ الرأي الصواب، ولو أنه أصاب لما تكلف عناء الإنجاب والتربية: [البيسط]

ضَلَّ الَّذِينَ رَأَوْا فِي النَّسْلِ فَائِدَةً وَلَوْ أَصَابُوا لَمَّا زُبُوا وَلَا حَضَنُوا (48)

وعند المعري فإن عدم النسل سبب من أسباب التخفيف من وطأة المعاناة، وشدة الآلام في الحياة: [الطويل]

وَهَوَّنَ أَزْوَاجَ الْحَوَادِثِ أَتْنِي وَحِيدٌ أَعَانِيهَا بَغِيرِ عِيَالٍ (49)

أما المتنبّي فقد تساءل: هل الولد الذي يحبه أبواه إلا مجرد تسليّة فقط؟! وهل في الخلوة مع الحسناء إلا الأذى الذي يصيب زوجها جرّاء ما يكون بينهما من الولد؟! فالدهر لا يستحق أن ينتظر منه الراحة، أو يُشْتاق فيه إلى الولد: [الطويل]

هَلِ الْوَلَدُ الْمَحْبُوبُ إِلَّا تَعْلَةٌ وَهَلْ خُلُوةُ الْحَسَنَاءِ إِلَّا أذى الْبَغْلِ
وَمَا الدَّهْرُ أَهْلٌ أَنْ تُؤْمَلَ عِنْدَهُ حَيَاةً وَأَنْ يُشْتاقَ فِيهِ إِلَى النَّسْلِ (50)

الرَّحِيلُ وَالْمُ الْفِرَاقِ

إن من أعظم المصائب والابتلاءات التي قد يتعرّض لها الإنسان في حياته؛ أن يفارق أقرب الناس إليه، وقد اضطرت صروف الدهر أبا إسحاق الحرّاني أن يرحل عن البصرة تاركاً وراءه أهله وأولاده فقال واصفاً حاله: [الطويل]

(46) اللزوميات، 2: 405.

(47) عبد الجبار بن حمديس (527هـ/1133م)، ديوان ابن حمديس، تحقيق إحسان عباس، (بيروت: دار صادر)، 34.

(48) عبد الله بن سنان الحفاجي (466هـ/1073م)، ديوان ابن سنان الحفاجي، تحقيق مختار الأحمدي ونسيب نشاوي، (دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية، 2007م)، 378.

(49) اللزوميات، 2: 224.

(50) أحمد بن الحسين المتنبّي (354هـ/965م)، ديوان المتنبّي، (بيروت: دار بيروت، ط1، 1403هـ. 1983م)، 281.

تَوَلَّيْتُ عَنْ أَرْضِ الْبَصِيرَةِ رَاجِلاً
فَمَا نَظُهُرُ الْأَسْوَاقِ إِلَّا صَنَائِعِي
وَأَفْنَدُهُ الْفَتَيَانَ حَشَوُ حَقَائِبِي
وَلَا تَسْتُرُ الْجُدْرَانَ إِلَّا حَبَائِبِي (51)

كَأَنَّ الشَّاعِرَ مِنْ شِدَّةِ حُرْقَتِهِ عِنْدَ الْفِرَاقِ قَدْ حَمَلَ مَعَهُ أَفْنَدَةَ أَطْفَالِهِ ضَمِنَ أُمَّتَعَتِهِ الَّتِي سَيَسَافِرُ بِهَا، وَهُوَ حَالَةً خُرُوجِهِ مِنْ بَلَدِهِ لَمْ يَعُدْ يَرَى مِنْ أَسْوَاقِ الْبَصْرَةِ وَسَاحَاتِهَا وَحِيطَانِهَا إِلَّا مَا يُذَكِّرُهُ بِأَحْبَابِهِ الَّذِينَ يَفَارِقُهُمْ، وَمَا كَانَ مِنْهُ فِي سَابِقِ عَهْدِهِ بِهَا.

مَصِيبَةٌ فَقَدِ الْوَلَدِ

إِذَا كَانَ الرَّحِيلُ عَنِ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ مَصِيبَةٌ كَبِيرَةٌ يَتَعَرَّضُ لَهَا الْمَرْءُ، فَلَا شَكَّ أَنَّ مَصِيبَةَ الْمَوْتِ أَشَدُّ تَأْثِيرًا عَلَى النَّفْسِ، وَأَثْقَلُ وَطْأَةً عَلَى الْفُؤَادِ، وَهَذِهِ فَطْرَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ جُبِلَ عَلَيْهَا الْبَشَرُ. وَإِذَا مَا لَاحِظْنَا أَنَّ الْعَصُورَ الْكَلَّاسِيكِيَّةَ لَمْ تَشْهَدْ التَّطَوُّرَ الطَّبِيَّ الَّذِي نَعِيشُهُ فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ، فَلَنْ نَسْتَعْرَبَ أَنَّ جِزَاءً كَبِيرًا مِنَ الْوَفِيَّاتِ فِي تِلْكَ الْعَصُورِ، كَانَ مِنَ الْأَطْفَالِ وَحَدِيثِي السِّنِّ. وَكَانَ الشَّعْرُ انْعِكَاسًا لِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ، فَالْقِصَائِدُ الَّتِي نُظِمَتْ فِي رِثَاءِ الْأَطْفَالِ، وَالتَّحْسُرِ عَلَى فَقْدِهِمْ تُشَكِّلُ أَكْثَرَ الْأَشْعَارِ الْمَنْظُومَةِ فِي شَأْنِ الطُّفُولَةِ. وَإِذَا نَظَرْنَا فِي شِعْرِ رِثَاءِ الْأَطْفَالِ فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ فَإِنَّا نَجِدُ أَنَّهَا تَسْتَحِقُّ الْإِفْرَادَ فِي مَقَالَةٍ مُسْتَقَلَّةٍ، وَسَاخْتَارُ فِي هَذَا الْمَقَامِ بَعْضًا مِمَّا نُظِمَ فِي هَذَا الْمَقَامِ.

فُجِعَ بَشَارِ بْنِ بَرْدٍ بِمَوْتِ طِفْلِهِ مُحَمَّدٍ؛ فَقَالَ: [الطويل]

لَعَمْرِي لَقَدْ دَافَعْتُ مَوْتَ مُحَمَّدٍ
فَأَصْبَحْتُ أَبَدِي لِلْغُيُورِ تَجَدُّدًا
لَوْ أَنَّ الْمَنَابِيَا تَرَعَوْي لِطَبِيبٍ
وَمَا كَانَ لَوْ مُلَيْتُهُ بِعَجِيبٍ (52)
وَيَا لَكَ مِنْ قَلْبٍ عَلَيْهِ كَنِيبٍ
عَجِبْتُ لِإِسْرَاعِ الْمَيِّتَةِ نَحْوَهُ

يُشْسِمُ بَشَارٌ أَنَّهُ لَوْ كَانَ بِاسْتِطَاعَةِ الطَّبِّ أَنْ يَمْنَعَ الْمَوْتَ، لَبَدَّلَ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى يَنْقِذَ مُحَمَّدًا، لَكِنَّهُ بَدَلَ ذَلِكَ اخْتَارَ أَنْ يَتَجَدَّدَ وَيَتَصَبَّرَ أَمَامَ أَعْيُنِ النَّاسِ مَخْفِيًا كَابَةً صَدْرِهِ عَنْهُمْ، مُتَعَجِّبًا مِنْ شِدَّةِ إِسْرَاعِ الْمَوْتِ لَوْلَدِهِ.

وَعَلَى نَحْوِ قَرِيبٍ مِنْ هَذَا أَظْهَرَ ابْنَ الرَّومِيِّ عَجَبَهُ كَيْفَ تَخَطَّفَ الْمَوْتُ أَوْسَطَ صَبِيئِهِ

فَقَالَ: [الطويل]

بُنِّيَ الَّذِي أَهْدَيْتُهُ كَفَّايَ لِلتَّرَى
فَلَهُ كَيْفَ اخْتَارَ وَاسِطَةَ الْعَقْدِ (53)
فِيَا عِرَّةَ الْمُهْدَى وَيَا حَسْرَةَ الْمُهْدِي

(51) ياقوت الحموي، معجم الأديباء، 1: 150.

(52) بشار بن برد (167هـ / 784م)، ديوان بشار بن برد، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور، (الجزائر: وزارة الثقافة، 2007م)، 1: 278.

(53) ديوان ابن الرومي، 1: 400.

أودعَ أعزَّ ما لِيديه الترابَ، والحسرةُ تعصرُ فؤادهُ، والغريبُ أنَّ الموتَ اختارَ أوسطَ وأحبَّ
أولادهِ إليه، فكأنَّه اختارَ أعلىَ جوهرةٍ في العفدِ.

ومن أبلغ الرثاء ما قاله المتنبي يرثي ابن سيف الدولة الحمداني حيث قال: [الطويل]

فإن تَكُ في قبرٍ فأبْك في الحشا	وإن تَكُ طفلاً فالأسى ليس بالطفل
ألست من القوم الألى من رماجهم	نداهم ومن قتلهم مهجة البخل
بمولودهم صمئت اللسان كغيره	ولكن في أعطافه منطق الفضل
بنفسي وليد عاد من بعد حمّله	إلى بطن أم لا تُطرق بالحمل ⁽⁵⁴⁾

لئن كان الأمير في القبر فإن مسكنه حنايا الجوانح، وقد يكون طفلاً صغيراً، لكن فداحة
فقدته ليست بأمر هين على النفس، بل هي خطب جلل. كيف لا وهو من القوم الذين كرمهم
تابع من فيء سلاحهم، بل أضحي البخل ضريعاً معدوداً ضمن قتلاهم، نعم؛ إن طفلهم لا يتكلم
كغيره من باقي الأطفال، لكن أصالة عنصره تنطق من بين جوانحه وأطرافه، ولذلك حق له أن
يفتديه الشاعر بنفسه، وقد رجع من بعد خروجه من رحم أمه إلى رحم أم أخرى هي الأرض،
ولكن للأسف فإن هذه الأم لا تتأثر بالأم الحمل حتى تلده وتعيده إلى الحياة مرة أخرى.

ويجتمع المصائب المريز على الإنسان أحياناً، فتضاعف الفجيعة عليه بفقد أكثر من ولد،
وهذا ما حدث مع إبراهيم بن العباس الصولي، الذي أخذت عنده المأساة بعداً أثقل على النفس،
وأشد وطأة على الصدر، فقد نكب بطفلين واحداً تلو الآخر، فقال معتبراً عن ألمه: [المنسرح]

كل لساني عن وصف ما أجد	ونقت تكلماً ما ذاقه أحد
ما عالج الحزن والحرارة في الـ	أحشاء من لم يمث له ولد
فجعت بابني ليس بينهما	إلا ليال ما بينهما عدد
وكل حزن ينلى على قدم الـ	دهر وحزني بجد الكمد ⁽⁵⁵⁾

انعدت لسان الشاعر عن وصف مرارة المصائب الذي ألم به، والحزن الذي لم يشعر به أحد
ممن فقد الولد غيره؛ فقد فجع بولدين معاً خلال ليال معدودة، ولذلك فإن كمده وآلامه دائمة
التجدد.

ورغم عظم الفجيعة بموت الولد، فقد كان دأب الشعراء في هذا العصر التسليم بقضاء الله

وقدره، والاستعانة بالتصبر والتجمل ما أمكنهم ذلك، ومن ذلك قول ابن برد: [الطويل]

صبرت على خير الفتور زرنته	ولو لا إيقاء الله طال تحببي
ولي كل يوم عبدة لا أبيضها	لأحظى بصبر أو يحط ثوب
إلى الله أشكو حاجة قد تقادمت	على حدث في القلب غير مربيب ⁽⁵⁶⁾

(54) ديوان المتنبي، 279.

(55) إبراهيم بن العباس الصولي (247هـ/861م)، ديوان الصولي، تحقيق عبد العزيز الميمني، (الهند: عليكرة)، 175.

(56) ديوان بشار بن برد، 1: 278.

يقول: صبرْتُ على فُقْدِ خَيْرِ الْفَتِيَانِ، وَلَوْلَا تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى لَجَزَعْتُ وَطَالَ بَكَائِي، وَفِي كُلِّ يَوْمٍ أَحْبَسْتُ دَمْعِي، عَسَايَ أَظْفُرُ بِثَوَابِ الصَّبْرِ أَوْ بِتَكْفِيرِ ذُنُوبِي، وَأَشْكُو مَصَابِي الْمَتَقَادِمِ فِي قَلْبِي إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

وكذلك سلمَ ابن الرومي أمرَه إلى رَبِّهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَقَالَ: [الطويل]

وللرَّبِّ إِمضَاءُ الْمَشِينَةِ لَا الْعَبْدَ (57)

أَمَّا أَبُو الْحَسَنِ التَّهَامِيُّ فَكَانَ مَوْتُ ابْنِهِ سَبَبًا لِيَجِدَّ مَعْرِفَتَهُ بِحَقِيقَةِ الْحَيَاةِ، وَمَا جُبِلْتُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَكْدَارِ: [الكامل]

مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارٍ قَرَارٍ	حُكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِّيَّةِ جَارِي
حَتَّى يُرَى خَيْرًا مِنَ الْأَخْبَارِ	بَيْنَا يُرَى الْإِنْسَانَ فِيهَا مُخْبِرًا
صَفْوًا مِنَ الْأَقْدَاءِ وَالْأَكْدَارِ	طَبَعْتُ عَلَى كَذْرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا
مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ جَذْوَةَ نَارٍ	وَمُكَلَّفٌ الْأَيَّامَ ضِدًّا طَبَاعَهَا
أَعْدَدْتُهُ لِطَلَابَةِ الْأَوْتَارِ	إِنِّي وَتَرْتُ بِصَارِمِ ذِي رَوْنِقٍ
وَفَقَّتْ حِينَ تَرَكْتَ الْأَمَّ دَارٍ	أَبْكِيهِ ثُمَّ أَقُولُ مُعْتَبِرًا لَهُ
شَتَانٌ بَيْنَ جَوَارِهِ وَجَوَارِي (58)	جَاوَرْتُ أَعْدَائِي وَجَاوَرَ رَبِّي

ليست الحياةُ بدارٍ مقررٍ أو سعادةٍ، بل هي دارٌ همومٍ ومصائبٍ وفُقْدٍ للخلائِ والأحبَّةِ، ومن حاولَ تغييرَ حالِ الدُّنْيَا فكمَنَ طلبَ من الماءِ شعلَةَ نارٍ، وقد نالَ الشاعرَ نصيبُهُ من ألامِ الحياةِ فابْتُلي بموتِ ابْنِهِ الَّذِي كَانَ كَالسَّيْفِ الصَّارِمِ الَّذِي أَعَدَّهُ لِمَقَاتِلَةِ الْأَعْدَاءِ. يقولُ الشاعرُ: أبْكِيهِ حَزْنًا ثُمَّ أَسْلَيْ نَفْسِي قَاتِلًا لَهُ لَقَدْ أَدْرَكَكَ التَّوْفِيقُ عِنْدَمَا تَرَكْتَ أَقْبَحَ دَارٍ وَأَشَدَّهَا لَوْمًا، وَهَأَنْدَا جَاوَرْتُ أَعْدَائِي، فِي حِينٍ يَجَاوِرُ وَلَدِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، فَشَتَانٌ مَا بَيْنَ الْجَوَارِي.

وكذلك بدأ أسامة بن منقذٍ مَرِثَتَهُ لَوْلَدِهِ بِالشُّكْوَى إِلَى اللَّهِ، وَخَتَمَهَا بِطَلْبِ أَجْرِ الصَّبْرِ مِنْهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى: [الطويل]

وَحُرْقَةً أَحْسَنِي لَفَقْدِ أَبِي بَكْرٍ	إِلَى اللَّهِ أَشْكُو رَوْعِي وَرَزِيَّتِي
وَلَمْ يَخُلْ مِنْ حُزْنِي وَوَجْدِي بِهِ صَدْرِي	خَلَا نَاطِرِي مِنْهُ وَكَانَ سَوَادُهُ
فِيَا طَوْلَ حُزْنِي إِنْ تَطَاوَلَ بِي عُمْرِي	فَمَا فِي حَيَاتِي بَعْدَهُ لِي رَاحَةٌ
سَلَّوَيَ بِمَا أَرْجُو مِنَ الْأَجْرِ فِي الصَّبْرِ (59)	وَلَمْ تُسَلِّني الْأَيَّامُ عَنْهُ وَإِنَّمَا

(57) ديوان ابن الرومي، 1: 401.

(58) علي بن محمد التهامي (416هـ/1025م)، ديوان أبي الحسن علي بن محمد التهامي، تحقيق محمد الربيع، (الرياض: مكتبة المعارف، ط1، 1402هـ. 1982م)، 308.

(59) أسامة بن منقذ (584هـ/1188م)، ديوان أسامة بن منقذ، تحقيق أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، (بيروت: عالم الكتب، ط1، 1403هـ. 1983م)، 247.

شكى الشاعرُ حُرْقَةً كَبِدِهِ بِفَقْدِ وَلَدِهِ إِلَى رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَقَدْ غَابَ عَنْ عَيْنَيْهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ يَسْكُنُ سُوَيْدَاءَهُمَا، وَاشْتَدَّ حَزْنُهُ عَلَيْهِ حَتَّى مَلَأَ حَيَاتُهُ؛ فَمَهْمًا تَطَاوَلَ عَمُوهُ تَطَاوَلَ مَعَهُ كَمَدُّهُ وَكَأَبْتُهُ، فَلَمْ يَعُدْ لَهُ مِنْ تَسْلِيَةٍ إِلَّا مَا يَرْجُوهُ مِنْ ثَوَابِ الصَّبْرِ.

الخاتمة:

خلصت هذه الدّراسةُ إلى جملةٍ من النتائج؛ منها:

تناوَل الشُّعراءُ موضوعَ الطفولةِ من خلالِ جوانبٍ متنوعَةٍ ومتباينةٍ، لكنَّ أكثرَ هذه الجوانبِ حضوراً في الشعرِ جانيبا الموتِ والحياةِ.

بالنَّظَرِ إلى رحلةِ الطفولةِ والشَّعرِ عبْرَ العصورِ يمكنُ ملاحظةَ تقدُّمِ أغراضِ شعريّةٍ على حسابِ أغراضِ شعريّةٍ أخرى، مع التطوُّرِ الذي يطرأ على الغرضِ الشعريِّ الواحدِ.

بالرغم من قلة الشعر الذي يخاطب الطفل مباشرةً وينطلق من اهتماماته، وتطوير مهاراته اللغوية والفكرية بطريقة علمية؛ إلا أنّ هذه الظاهرة لا تقلل من أهمية الطفولة في الأدب العربي، لأنّ ما نسّميه اليوم اصطلاحاً بأدب الطفل، لم يكن معروفاً في العصور الكلاسيكية.

صوّر الشعراءُ في العصر العباسي الحُرصَ على تربية الأطفال، وتفاوت مذهبهم في ذلك، بين التلطفِ والبُشدةِ التي قد تصل إلى الضرب.

عبّر الشعراء عن فلسفتهم المتشائمة في الحياة من خلال الطفولة، وتصوير عجزها عن استجلاب النفع، ودفع الضر.

ورأى بعض الشعراء أنّ الدُّنيا كالطفلٍ المتقلّب المزاج؛ فتارةً فيها ما يسرُّ وتارةً أخرى فيها ما يُحزّن.

كان لقدوم المولود والتهنئة به مكانةً خاصة في نفوس الشعراء في العصر العباسي، ولذلك كثرت على ألسنتهم قصائد المدح والتهنئة وإظهار الفرح بالطفل.

تغيّرت المعالجة الشعرية لولادة البنت، فبعد أن كانت مصدرًا للتطوُّر والخوف من المستقبل في العصور الماضية؛ أصبحت أملاً ومستقبلاً جميلاً وبركةً على أهلها.

شغل الاستبشارُ بمستقبل الأطفال حيزاً مهماً عند الشعراء، لأنهم رأوا فيهم استمراراً لِدُكْرِ آبائهم، سيّما إذا كانوا من أهل الإمارة والوزارة والمناصب.

وتفرَّغ عن ذلك الشَّعرُ الذي رأى في الطفل غيضاً للحسود، وكتباً للعدو.

من مظاهر الاهتمام بالطفولة الاهتمام بمناسباته الخاصة التي أصبحت مناسبات اجتماعية يُدعى إليها ويُحتفل بها؛ كفطامه وطهوره وغير ذلك.

ومن مظاهر الاهتمام بالطفولة أيضاً احتمال الهَمّ خوفاً على الطفل.

من أبرز المشاعر الإنسانية في موضوع الطفولة، مشاعر الضعف عند مفارقتِه لعارض أو سفرٍ ونحو ذلك، وأكثرُ ما يتجلى ذلك عند الانكسارِ والأسَى لَدَى فقْدِه وموتِه.

المراجع:

إبراهيم بن خَفَاجَة (533هـ/1138م)، ديوان ابن خفاجة، تحقيق السيد مصطفى غازي، (الإسكندرية: منشأة المعارف، 1960م).

إبراهيم بن العباس الصولي (247هـ/861م)، ديوان الصولي، تحقيق عبد العزيز الميمني، (الهند: علبكره).
أحمد بن الحسين المتنبّي (354هـ/965م)، ديوان المتنبّي، (بيروت: دار بيروت، ط1، 1403هـ - 1983م).

أحمد بن عبد الله أبو العلاء المعري (449هـ/1057م)، اللزوميات، تحقيق أمين الخانجي، (القاهرة: مكتبة الخانجي).

أحمد بن عبد ربه (328هـ/940م)، ديوان ابن عبد ربه، تحقيق محمد رضوان الداية، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1399هـ - 1979م).

أحمد بن محمد ابنُ الخيَّاط (517هـ/1123م)، ديوان ابن الخياط، (النجف الأشرف: المطبعة العلوية، ط1، 1343هـ).

أسامة بن منقذ (584هـ/1188م)، ديوان أسامة بن منقذ، تحقيق أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، (بيروت: عالم الكتب، ط1، 1403هـ - 1983م).

إسماعيل بن القاسم أبو العتاهية (210هـ/826م)، ديوان أبي العتاهية، (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ط1، 1406هـ - 1986م).

بشار بن برد (167هـ/784م)، ديوان بشار بن برد، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور، (الجزائر: وزارة الثقافة، 2007م).

الحسن بن عبد الله أبو هلال العسكري (بعد 395هـ/1004م)، ديوان المعاني، تحقيق أحمد حسن بسبح، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1414هـ - 1994م).

الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني (502هـ/1108م)، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، (بيروت: دار الأرقم، ط1، 1420هـ).

خليل بن أيبك الصفدي (764هـ/1363م)، الوافي بالوفيات، تحقيق س. ديدرينغ، (شتوتغارت: دار النشر فرانز شتاينر، ط3، 1411هـ - 1991م).

- السَّريُّ بن أحمد الرِّفَاء (362هـ/972م)، ديوان السَّري الرِّفَاء، تحقيق كرم البستاني، (بيروت: دار صادر، ط1، 1996م).
- عبد الجبار بن حمديس (527هـ/1133م)، ديوان ابن حمديس، تحقيق إحسان عباس، (بيروت: دار صادر).
- عبد الله الخطيب، صالح بن عبد القوس البصري (167هـ/783م)، (بغداد: دار منشورات البصري، 1967م).
- عبد الله بن سنان الخفَّاجي (466هـ/1073م)، ديوان ابن سنان الخفَّاجي، تحقيق مختار الأحمدي ونسيب نشاوي، (دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية، 2007م).
- عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا (281هـ/894م)، قرى الضيف، تحقيق عبد الله المنصور، (الرياض: أضواء السلف، ط1، 1997م).
- عبد الملك بن محمد أبو منصور الثعالبي (429هـ/1037م)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق مفيد قمحية، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1403هـ. 1983م).
- عبد الملك بن محمد أبو منصور الثعالبي، اللطائف والظرائف، (بيروت: دار المناهل).
- عبد الواحد بن نصر المخزومي المعروف بالبيغاء (398هـ/1007م)، ديوان البيغاء، تحقيق سعود عبد الجابر، (عمان: دار الحامد، ط1، 2004م).
- علي الحديددي، في أدب الأطفال، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط4، 1988م).
- علي بن العباس ابن الرومي (283هـ/986م)، ديوان ابن الرومي، شرح: أحمد بسنج، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط3، 1423هـ. 2002م).
- علي بن محمد التهامي (416هـ/1025م)، ديوان أبي الحسن علي بن محمد التهامي، تحقيق محمد الربيع، (الرياض: مكتبة المعارف، ط1، 1402هـ. 1982م).
- علي بن محمد الحماني (301هـ/914م)، ديوان الحماني، تحقيق محمد الأعرجي، (بيروت: دار صادر، 1998م).
- محمد بن الحسن بن حمدون (562هـ/1166م)، التذكرة الحمدونية، (بيروت: دار صادر، ط1، 1417هـ).
- محمد بن الحسين الشريف الرضي (406هـ/1015م)، ديوان الشريف الرضي، (إيران: منشورات مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامي، ط1، 1406هـ).
- محمد بن شاعر الكتبي (764هـ/1362م)، فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، ط1، 1973م).
- محمد بن عيسى الترمذي (279هـ/892م)، الجامع، تحقيق أحمد شاعر وآخرون، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).
- محمد بن مكرم بن منظور (711هـ/1311م)، لسان العرب، (بيروت: دار صادر).

- محمد بن يحيى بن عبد الله أبو بكر الصولي (335هـ/946م)، أخبار الشعراء المسمّى بالأوراق، (القاهرة: شركة أمل، 1425هـ).
- ياقوت الحموي (626هـ/1228م)، معجم الأدياء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق إحسان عباس، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1993م).
- يحيى بن علي الخطيب التّبريزي (502هـ/1109م)، شرح ديوان أبي تمام، تحقيق راجي الأسمر، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط2، 1414هـ. 1994م).
- يونس السامرائي، ديوان أبي علي البصير (255هـ/869م)، (بيروت: دار المواهب، ط1، 1419هـ. 1999م).